العلم والشؤون الاجتماعية

بقلم الدكتور على مصطفى مشرفه بك

عميد كلية العلوم

فى مصر اليوم حركة ونشاط يرميان الى إصلاح شؤوننا الاجتماعية وتنظيمها . هذه الحركة وهذا النشاط صادران عن شعور بأن حياة الأمة الاجتماعية تتطلب الدرس وتتطلب العناية وتتطلب العمل . فالمجتمع المصرى فى مدننا ، وعلى وجه الخصوص فى قرانا ليس على الحال الذى ترتضيه له عزتنا القومية . والأمور فيه لا تسير على المنهاج الذى تتوخاه أمة تحرص على أن يكون لها مقام معلوم بين الأمم المتحضرة . من هذا نشأ الشعور بالحاجة الى الاصلاح ، ولأجل هذا تحركت النفوس ولأقلام ونشطت العقول والأيدى بغية العمل والتنظيم . هذه الحركة وهذا النشاط فى حاجة إلى توجيه . هما منبعثان عن حيوية الأمة أو عن قلبها . ولكن عقل الأمة وضميرها يجب أن يرسما الخطط ويهديا السبيل . يجب أن يتبينا البواعث والغايات وأن يدركاها على حقيقتها كما يجب أن يتفهما المجتمع وأن يدركاه هو أيضا على حقيقته ، ثم عليهما بعد ذلك أن يوجها هذا النشاط وتلك الحركة نحو تحقيق الغايات المنشودة .

كانت العناية بشؤون المجتمع فى الأزمنة السالفة تكاد تنحصر فيما يقوم به بعض الأفراد أو بعض الجماعات من أعمال البر والاحسان ، وكانت الدعوة فى ذلك توجه الى القلوب أكثر منها الى العقول . فالغنى اذا نظر الى الفقير تأثر لحاله وأطعمه أو أعطاه شيئا من ماله ، والصحيح القادر اذا رأى المريض الضعيف آواه وساعده على الشفاء من سقمه . وقد نظمت بعض هذه الأعمال فنشأت الجمعيات الخيرية والملاجئ والمستشفيات . والباعث فى كل هذا انما هو الرغبة فى خير البشر أو حب الانسان لأخيه ما يحبه لنفسه . هذا الباعث كان ولا يزال من أهم البواعث على العناية بشؤون المجتمع ، وهو باعث يجب على كل مشتغل بتنظيم الشؤون الاجتماعية أن يعطيه قيمته ووزنه . ثم حدث أن تنبه بعض المحسنين الى أن الفقر والمرض ليسا وحدهما هما اللذان يفتكان بالمجتمع بل أن الجهل أدهى وأمر ، فاتجهت الجمعيات الخيرية الى إنشاء المدارس ، وتألفت بعض الهيئات للعمل على رفع المستوى الفكرى والخلقى بين الطبقات الفقيرة فى المدن والقرى . وتنبه البعض الى فائدة الألعاب الرياضية فى المحافظة على سلامة

الجسم والنفس فتألفت اللجان والأندية الرياضية وأخذت تعمل على نشر الرياضة البدنية بين طبقات الأمة . ثم أدركت الدولة أن تنظيم الشؤون الاجتماعية أمر من الأمور التى تعنيها فأنشأت وزارة تختص به وتتفرغ له . كل هذه الأمور قد حدثت وشاع خبرها بيننا فهى لا تحتاج منى إلى تعريف . وقد كنا فى معظم هذه الأمور مسوقين الى حد ما بقوة خفية تحركنا نحو هدف مبهم فى نفوسنا نحسه ولا نكاد نتبينه . هذه القوة ناشئة عن حيوية الأمة التى هى مبعث هذه الحركة وذلك النشاط اللذين أشرت اليهما فى أول كلامى واللذين يقترنان بالرغبة فى إصلاح شؤوننا الاجتماعية .

أمامنا اليوم احتمالان . أولهما أن نستمر مسوقين الى حيث لا نكاد نتبين ، تاركين أمر تطورنا الاجتماعى إلى الصدف تلعب بنا كيف تشاء وتزج بنا فى غياهب لا نبراس لنا فيها ولا هدى ، فاذا سئلنا عن هدفنا أو عن سياستنا الاجتماعية تحاشينا الإجابة واحتمينا وراء العبارات المأثورة ننقلها عن غيرنا من الأمم المعاصرة لنا أو عن الأجيال السالفة منا ، وهذه هى العقلية السقيمة أو العقلية غير العلمية . والاحتمال الثانى هو أن نحكم العقل والمنطق السليم فندرس المجتمع المصرى دراسة علمية صحيحة ونقف على عيوبه وأدوائه ثم نرسم لنا سياسة رشيدة تصل بمجتمعنا المصرى الى ما نرجوه له من سعادة ورفاهية ، وهذه هى العقلية العلمية .

فالعلم هو قبل كل شىء وفوق كل شىء عقلية خاصة ، عقلية واقعية تنظر الى الحقيقة المجردة فى غير ما وجم أو تعام مهما تكن هذه الحقيقة مؤلمة أو ممضة ، ثم اذا هى استوعبتها وأدركتها حق ادراكها راحت تبنى عليها أقوالها وأفعالها مستندة الى التفكير السليم والمنطق الصحيح .

هذا إذن أول أثر للعلم فى شؤوننا الاجتماعية ، وهو أثر كما نرى عميق يرتبط بالطريقة ذاتها التى نعالج بها هذه الشؤون وبالكيفية التى نبنى بها سياستنا الاجتماعية .

وسينجم عن استخدام الطريقة العلمية فى شؤوننا الاجتماعية أن نتعرف حقيقة تكوين المجتمع المصرى من نواحيه المختلفة : من الناحية الاقتصادية وسوء توزيع الثروة بين أفراده ، ومن ناحية الصحة والمرض وكيف أن الأمراض المستوطنة وغير المستوطنة تفتك به فتكا ذريعا ، ومن ناحية التعليم ومقدار انتشار الجهل بين طبقاته . كذلك فى دراسة عادات المجتمع نستطيع أن نتعرف العادات الاجتماعية التى تعمل على ازدياد الثروة والصحة والتعليم والعادات التى تؤدى الى زيادة الفقر والمرض والجهل .

وكما أن العلم يهب لنا طريقة فى البحث ومنهاجا فى الاستقصاء ، فانه فى الوقت ذاته يساعدنا على حل المشكلات الاجتماعية التى نجد أنفسنا أمامها . لنأخذ مثلا مشكلة القرية المصرية

تلك المشكلة التى تستلفت نظر كل ذى عينين وتعتبر وصمة فى جبين الأمة بأسرها . اننا اذا رجعنا الى الاحصاءات وجدنا أن أكثر من ٨٠ ٪ من الأموال العامة فى مصر تصرف فى المدن مع أن مجموع سكان المدن لا يصل الى ٢٠ ٪ من مجموع السكان . هنا يساعدنا علم الاحصاء على تفهم المشكلة من الناحية الاقتصادية وهو فى الوقت ذاته يبين لنا الاتجاه الصحيح لحلها . أما عن الصحة والمرض، فان العلم الحديث عدا ما يضعه فى أيدينا من وسائل لعلاج الأمراض ، يدلنا فى الوقت نفسه على أن مجرد الاكثار من المستشفيات وأطباء العلاج لا يكفى ، فالمرض له أسباب وكثير من هذه الأسباب معروف، واذن فبدلا من أن نترك الناس يتعرضون للأمراض بجهلهم بأسبابها وجب على القائمين على شؤون المجتمع أن ينبهوهم الى هذه الأسباب وأن يرشدوهم الى كيفية تحاشى التعرض لها ، وهذا يكون بتعويدهم النظافة وبث الدعوة الصحية بينهم . وأما عن الجهل فمن نافلة القول ان العلم ضد الجهل فهنا يكون العلم ذاته هو الدواء ولا حاجة به الى أن يدلنا على دواء آخر لمشكلتنا الاجتماعية .

وكما أن الوقاية من الأمراض خير من علاجها بعد الوقوع فيها، فإن الوقاية من الفقر خير من الإحسان الى الفقراء . وقد ظل الناس سنين متعاقبة يحسنون الى الفقير باعطائه شيئا من مالهم ومع ذلك بقى الفقر منتشرا بين الناس . ولا شك فى أن التصدق ينشأ عنه اغتباط روحى عند المتصدق كما ينشأ عنه سد وقتى لحاجة المتصدق عليه ، ولكن العلم لا يكتفى بمثل هذه الحلول الوقتية، فالفقر مرض اجتماعى يجب استئصاله على قدر الاستطاعة بتوفير عمل مناسب لكل قادر على العمل ودفع أجر كاف لكل عامل . هنا نجد العلوم الاقتصادية والعلوم الاجتماعية تهب لنصرتنا وتساعدنا على وضع سياسة اجتماعية رشيدة تعطى فيها لكل قادر فرصة العمل والكسب .

عند ما قرأت هذه العبارة الأخيرة على أحد أصدقائى قال لى فى شىء من الدعابة : "لقد صدقناك عند ما كنت تتكلم عن مداواة الأمراض والوقاية منها ومحاربة الجهل فكل هذه أمور يستطيع العلم أن يعالجها وله فضل مشهود به فيها، أما عن الفقر فكيف يستطيع العلم أن يزيله ؟ كيف يستطيع العلم مثلا أن يرفع مستوى معيشة الفلاح المصرى والثروة المصرية محدودة ونحن لا نعتمد على غير ثروتنا الزراعية ، فهل يستطيع العلم أن يخلق لنا الذهب أم ماذا ؟" قال لى ذلك كما ذكرت مداعبا ظانا منه أن العلم مهما ادعى لنفسه من مزايا فهو لن يدعى القدرة على خلق المال خلقا . ومع ذلك فان إنماء الثروة بل وخلقها إنما هو أثر من آثار العلم . وفى مصر على وجه الخصوص لا تزال ثروتنا المعدنية وغير المعدنية معطلة

لا نستفيد منها ، فالحديد كما نعلم قد كشف عنه بفضل العلم فى منطقة أسوان ، واستنباط القدرة الكهربائية من حركة المياه كسد أسوان وغيره وانشاء الصناعات الكثيرة التى نستطيع بفضل العلم أن ننشئها ، كل أولئك وغيرها طرق لخلق الثروة أو بعبارة أضبط لإبراز الثروة الكامنة وتحويلها الى مال يدفع عنا الفقر ويدر علينا الخيرات العديدة . فالثروة الحقيقية للأمم منشؤها عقول أبنائها وما يبذلون من المجهود المنتج للاستفادة مما حوتهم من قوى الطبيعة ومواردها. وقد عاش الهنود الحمر فى أمريكا أجيالا لم ينعموا فيها بثراء ، فلما دخلها أهل أوربا حولوا أراضيها الى جنات وجعلوا منها أغنى بلاد فى العالم .

وبعد فمن أظهر العيوب فى شؤوننا الاجتماعية البعد عن الترتيب أو انعدام النظام. فالقرية المصرية لا نظام لها فى مظهرها الخارجى ، والمدينة المصرية ينقصها التنسيق ، وحياة الأسرة يعوزها التوقيت وحسن التدبير .

هذا العيب قد ظهر بوضوح لكل من سافر منا إلى بلاد الحضارة الغربية وقارن بين قراهم وقرانا ، بين مدنهم ومدننا ، بين حياتهم وحياتنا . والفرق بيننا وبينهم فى ذلك كبير وشاسع إلى حد يكاد يزعزع فينا إيماننا بأنفسنا ويحملنا على الاعتقاد بأننا ننقص عنهم فى عنصر من عناصر تكويننا الرئيسية . غير أن شيئا من التفكير يدلنا على أن الأمر أهون من ذلك بكثير ، فانتفاء النظام من قرانا وعن مدننا وعن حياتنا إنما هو أثر من آثار انتفاء النظام من تفكيرنا وصورة من صوره . فالعقلية المنظمة توجد الحياة المنظمة ، والعقلية المختلطة المبعثرة تنتج الاختلاط والبعثرة . وهنا يظهر أثر العلم واضحا فى الشؤون الاجتماعية ، إذ أن العقلية العلمية إن امتازت بشىء فإنما تمتاز بحب النظام و بالعمل على التنظيم : فالعقول التى تدرك قوانين الطبيعة وتقف على السنن المنظمة للكون ، بما يتجلى فيها من بديع التنسيق وجميل التآلف ، هذه العقول لا يمكن أن ترضى بالفوضى فى شىء مما حولها ، بل تعمل على إيجاد النظام فى حياة الفرد وفى حياة الأسرة كما تعمل على تنسيق المظهر الخارجى للقرية إن كانت تعيش فى القرية أو تعنى بأمرها ، وفى المدينة إذا سكنتها أو ارتبطت بها. فلننشر العلم إذن فى قرانا وفى مدننا ولنكسب الجيل الناشئ عقلية علمية منظمة فنكون بذلك قد قضينا على مرض من أفتك أمراضنا بالمجتمع وداوينا عيبا من أظهر عيوبنا القومية . ومن العيوب الاجتماعية الظاهرة فى مصر عدم الاتقان فى العمل فالصانع لا يتقن صنعته والعامل لا يتقن عمله والمحترف لا يتقن حرفته ، بل إن كثيرا من المتعلمين بيننا لا يتقنون إدارة الأعمال التى يديرونها. والاتقان صفة من صفات العقل المدقق ، العقل الذى يطلب الكمال فيما يصنع والذى يفكر فى الصغيرة والكبيرة فلا تفوته التفاصيل ولا يتهاون أو يهمل فى أمر من الأمور صغر

هذا الأمر أو كبر . ومن الأمثلة الشائعة بين الانجليز أنه إذا كان عمل يستحق أن يعمل فإنه يستحق أن يعمل بإتقان . والإتقان مبنى على دقة الملاحظة وسلامة التفكير. ولا شك فى أن الدراسات العلمية تنمى فى المرء دقة الملاحظة. فالطبيعة أروع مثال من أمثلة "الإتقان فى الصنع . والذى يدرس الطبيعة بما فيها من موجودات منها ما صغر ودق حتى لا تراه العين إلا بمنظار مكبر ومنها ما هو دون ذلك من الذرات وأشباهها ، وبما فيها من نجوم وعوالم تصل أبعادها إلى ملايين الملايين من الكيلومترات ، إن الذى يدرس كل هذا ويتعلم أن الخلية الصغيرة تكون الكائنات الكبيرة وأن العوالم العظيمة مؤلفة من ذرات ضئيلة بطريقة متقنة محكمة الصنع ، هذا الذى يدرس هذه الأمور ويتفهم كنهها لا يستطيع إلا أن يعنى بكل صغيرة وكبيرة فيما يصنع وإلا أن يكون موفقا فى كل ما يفعل .

ليس أدل على فضل العلم وأثره فى تنظيم الشؤون الاجتماعية من أن الأمم التى أخذت به واهتدت بهديه قد أفلحت فى تنظيم هذه الشؤون والارتفاع بها من المستوى المنخفض الذى نجده فى الأمم المتأخرة الى درجة من السمو تظهر واضحة لكل مطلع على أحوال الشعوب ملم بشؤونها .

ونحن فى مصر أحوج ما نكون الى الأخذ بنتائج العلم فى ميادينه المختلفة والتشبع بالعقلية العلمية كيما نصل الى ما وصل اليه غيرنا من رفع حال العامل والفلاح وزيادة الثروة القومية ووقاية الشعب من المرض والفقر والقضاء على الجهالات التى تعبث بكيان الأمة وتحول بينها وبين القوة والعزة والفلاح .

ولقد ذكرت فى بداية هذا الموضوع أن من أهم الواجب على العناية بشؤون المجتمع ، الرغبة فى خير البشر أى ذلك الحب فى الخير الذى تمتاز به النفوس المطمئنة والذى هو أساس إيماننا بمصير البشرية . وإنى اذ أنوه هنا بفضل العلم فى تنظيم الشؤون الاجتماعية وتوجيه الجهود فى هذا السبيل ، أريد أن أنوه فى الوقت ذاته بان العقلية العلمية التى أشرت اليها يجب أن تقترن بتلك الرغبة فى الخير ، فهذه الرغبة يجب أن تحدو العلم عند ما يخرج الى ميدان العمل ويهيمن على شؤون البشر ومن اقتران هذين العنصرين تتولد الحضارة ويزدهر المجتمع ونصل بمصرنا إن شاء الله الى ما نرجوه لها من سعادة ورفاهية .

على مصطفى مشرفة